

عليهم من حُللِ التقوى والإيمان بما لم يسبق له مثيل في عهود الرسالات السماوية السابقة.

لقد كان للصحابة الكرام لمساتٌ مباركة في تاريخ الإسلام، ولنا في سيرتهم العطرة دروسٌ وعبرٌ، وغذاءٌ للروح والفكر باعتبارهم نموذجاً حياً خالداً لكل زمان ومكان، تستقي منه الدنيا قيم الفضيلة والشهامة والإيثار وخدمة الجماعة، والتكافل والفداية، والثبات على المبادئ والقيم السمحاء بما يجعل من روحانية الفرد المؤمن ساميةً تهفو بمحبتها للانصباغ بصفات هؤلاء الأطهار الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿مَحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ٢٨).

وإذا كان للصحابة هذا الشرف الروحاني العظيم في الزمن الأول للإسلام بزعامة المصطفى ﷺ، فإن لهم

قبسات من سيرة صحابي جليل

أبو ذر الغفاري رضي الله عنه

بحث وإعداد: جمال أغزول *

الصحابة الكرام رضوان الله عليهم نجومٌ نورانيةٌ ساطعةٌ في سماء الإسلام استنقت نورانيتها من شمس الهداية ومنبع الفيوض الربانية، سيدنا محمد المصطفى ﷺ الذي وصفهم بقوله: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم". وكيف لا يكونون منبع هداية واقتداء وهم تلامذة سيدهم وأستاذهم ﷺ الذي زكاهم وطهرهم وأفاض



* مراسل «التقوى» بالملكة المغربية

في الزمن الثاني والأخير للإسلام ببعثة خادم محمد المصطفى ﷺ سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود ﷺ شرقاً روحانياً عظيماً آخر في نُصرة الإسلام

في هذا الزمن الأخير الذي عمّت فيه الضلالة بدل الهدى، والبدعة بدل السنّة، والشرك بدل التوحيد.

إن للصحابة الكرام في البعثتين المباركتين للإسلام سماتٍ عطرّةً تستمدُّ أريجها من الصُّحبة المقدّسة، ولنا في مناقبهم زادًا روحانيًا، وينبوعًا من ينابيع فضل الله ورحمته على العالمين. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *﴾ (الجمعة: ٣-٥).

اخترنا لك عزيزي القارئ أحد هذه النجوم الساطعة من الزمن الأول للإسلام، للكشف عن فضائله

وتضحياته ومعالم شخصيته المباركة الفيّاضة لعلها تُشعل جذوة الإيمان في القلوب وتُحرّك عاطفتنا للبحث والاهتمام بشمائل الصحابة الأخيار، وغرس قيمهم وصفاتهم الروحانية في النفوس، لكونهم بحق أبطال التاريخ الذين ضحوا من أجل الإيمان والقيم والمعاني العالية لتبقى راية الإسلام حفاقة أبدية.

أبو ذرّ والرّحلة إلى الإيمان

حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب..

حدثني أبو حمزة قال: قال لنا ابن عباس:

ألا أخبركم بإسلام أبي ذر، قال: قلنا

بلى، قال: قال أبو ذر: " كنتُ رجلاً

من غفّار، فبلّغنا أنّ رجلاً خرج بمكة

يزعم أنه نبي، فقلتُ لأخي انطلق إلى

هذا الرجل فكلّمه واثني بخبره فانطلق،

فلقيته ثم رجعتُ، فقلتُ ما عندك؟ فقال:

والله لقد رأيتُ رجلاً يأمرُ بالخير وينهى

عن الشرِّ. فقلتُ له: لم تشفني من

الخبر، قال (أبو ذر): فأخذتُ جرّاباً

وعصاً ثمّ أقبلتُ إلى مكة، فجعلتُ لا

أعرفه وأكره أن أسأل عنه.. فمرّ بي

عليّ فقال: كأنّ الرجلَ غريب! قلتُ

نعم، قال: فانطلق إلى المنزل. فانطلقتُ

معه لا يسألني عن شيء ولا أخبره، ثمّ

لمّا أصبحتُ غدوتُ إلى المسجد

لأسأل عنه (أي عن النبي ﷺ) وليس

أحدٌ يُخبرني عنه بشيء، فمرّ بي عليّ،

فقال: أما أنّ للرجل أن يعرف منزله

بعد؟! قلتُ: لا. قال: انطلق معي،

فقال: ما أقدّمك البلدة؟ قلتُ له: إنّ

كتمتُ عليّ أخبارك. قال: فإنّي أفعل.

أبو ذر الغفاري

(توفي سنة ٥٣٢/٥٢٠م)

هو أبو ذر أبو جندب بن جنادة، وقيل

يزيد بن جنادة، من قبيلة غفّار، وهو

من أعلام الصحابة وزهادهم

والمهاجرين. أسلم قديماً بمكة وذكر أنه

رابع من أسلم. سمع خبر بعثة المصطفى

ﷺ وأبى قلبه وضميره إلا أن يتحرّى

ذلك الأمر، فانشغل قلبه به وتلهّفت

نفسه لمعرفة حقيقة الدعوة التي تناقلت

العرب أخبارها.

ويُعرف عن أبي ذر أنه كان يتعبّد

قبل الإسلام ولم يسجد لصنم، وهذا

في حدّ ذاته ما يُفسّر لنا ذلك الحماس

القوي الذي أبداه رضي الله عنه لمعرفة

خبر دعوة النبي ﷺ والمسعى التي بذلها

حتى وصل إلى الحق مُصدّقاً ومؤمناً

ووفياً.

بعد إسلامه انصرف إلى قومه يبلغهم،

فأقام عندهم إلى أن قدّم المدينة على

النبي ﷺ بعد الخندق. عُرف رضي الله

عنه بالتواضع والزهد وصدق القول

والوفاء، فكان بحق من ذوي

قُلْتُ لَهُ: بَلَّغْنَا أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ هَاهُنَا رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَرْسَلْتُ أُخِي لِيُكَلِّمَهُ فَرَجَعَ وَلَمْ يَشْفِنِي مِنَ الْخَبْرِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَلْقَاهُ. قَالَ: أَمَا إِنَّكَ قَدْ رُشِدْتِ، فَاتَّبِعِي وَاَدْخُلِي حَيْثُ أَدْخُلِي.. فَمَضَيْ وَمَضَيْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلْتُ وَدَخَلْتُ مَعَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْرَضْ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ، فَعَرَضَ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ. فَأَسْلَمْتُ مَكَانِي. فَقَالَ لِي: "يَا أَبَا ذَرٍّ أَكُنْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ، فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا، فَأَقْبِلْ".." فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لِأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ. فَجَاءَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَقَرِيشَ فِيهِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قَرِيشَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَقَالُوا: قَوْمُوا إِلَى هَذَا الصَّابِيِّ!! فَصَارُوا، فَضَرِبْتُ لِأَمَوْتِ، فَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ، فَأَكْبَّ عَلَيَّ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: وَيَلَكُمْ تَقْتُلُونَ رَجُلًا مِنْ بَنِي غِفَارٍ؟! فَأَقْلَعُوا عَنِّي. فَلَمَّا أَصْبَحَتِ الْغَدُ رَجَعْتُ فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قُلْتُ بِالْأَمْسِ، فَقَالُوا: قَوْمُوا إِلَى هَذَا الصَّابِيِّ، فَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكْبَّ عَلَيَّ وَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ بِالْأَمْسِ، فَكَانَ أَوَّلَ إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ. (١)

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: "لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لِأَخِيهِ:

«ارْكَبْ إِلَى هَذَا الْوَادِي فَاعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْخَبْرُ مِنَ السَّمَاءِ، وَاسْمِعْ مِنْ قَوْلِهِ». ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَبِي ذَرٍّ فَقَالَ لَهُ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَكَلَامًا مَا هُوَ بِالشَّعْرِ، فَقَالَ (أَبُو ذَرٍّ): مَا شَفَيْتَنِي مِمَّا أَرَدْتُ. فَتَزَوَّدَ وَحَمَلَ شَنَّةً لَهُ فِيهَا مَاءٌ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَآتَى الْمَسْجِدَ، فَالْتَمَسَ النَّبِيَّ ﷺ وَلَا يَعْرِفُهُ.. (٢)

وَيُصِفُ أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيَّ مُشْهَدَ إِسْلَامِهِ عِنْدَ لِقَائِهِ بِالنَّبِيِّ ﷺ قَائِلًا: "كُنْتُ رُبْعَ الْإِسْلَامِ، أَسْلَمْتُ قَبْلِي ثَلَاثَةَ نَفَرٍ وَأَنَا الرَّابِعُ، أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَارَأَيْتُ الْإِسْتِبْشَارَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (٣)

نَعَمْ لَقَدْ مَثَلَ هَذَا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ أَمَامَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَدَّقَهُ بِمَبَاشَرَةٍ بَعْدَ مَا شَهِدَ وَجْهَهُ الْمُبَارَكَ الشَّرِيفَ الْمُتَأَلِّئُ بِأَنْوَارِ النَّبِوَةِ وَنَفْحَاتِهَا الْمُقَدَّسَةِ، فَنَطَقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ مَعْلَنًا إِسْلَامَهُ.

أَبُو ذَرٍّ وَالْوَفَاءُ الْعَظِيمُ

لَمَّا أَسْلَمَ أَبُو ذَرٍّ وَأَشْهَرَ إِسْلَامَهُ أَمَامَ الرَّسُولِ ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يَعُودَ إِلَى قَوْمِهِ لِيُبَلِّغَهُمْ دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ، فَكَانَ حَضْرَتُهُ

وَفِيهَا لِأَمْرِ الرَّسُولِ مَخْلَصًا وَمَطِيعًا صَادِقًا، فَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ يَزُفُّ إِلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ، فَكَلَّلَ اللَّهُ سَعْيَهُ بِنَجَاحٍ وَخُطَاهُ الصَّادِقَةَ الْوَفِيَّةَ بِرِكَاتِ الْإِيمَانِ، إِذْ أَسْلَمَتْ أُمُّهُ وَأَخُوهُ، كَمَا أَسْلَمَتْ قَبِيلَتَهُ غِفَارَ لِيَمُنَّا الْإِسْلَامَ إِلَى قَبَائِلٍ أُخْرَى مَجَاوِرَةَ كَقَبِيلَةِ أَسْلَمَ وَخُزَاعَةَ وَالَّتِي كَانَ لِأَبِي ذَرٍّ دَوْرٌ هَامٌّ فِي تَبْلِيغِهَا وَإِيصَالِ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ إِلَيْهَا. وَيُرْوَى أَبُو ذَرٍّ تِلْكَ الْمَهْمَةَ الَّتِي انْتَحَبَ إِلَيْهَا. يَقُولُ: "فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا أَبَا ذَرٍّ. فَقُلْتُ: لَبَّيْكَ!! فَقَالَ لِي: فَاحْرُجْ إِلَى قَوْمِكَ فَادْعُهُمْ إِلَى مَا دَخَلْتَ فِيهِ. فَخَرَجْتُ حَتَّى أَتَيْتُ أُمَّي وَأَخِي فَأَعْلَمْتُهُمُ الْخَبْرَ فَقَالَا: مَا لَنَا رَغْبَةٌ عَنِ الدِّينِ الَّذِي دَخَلْتَ فِيهِ، فَاسْلَمَا.

ثُمَّ خَرَجْنَا حَتَّى أَتَيْنَا الْمَدِينَةَ فَأَعْلَمْتُ قَوْمِي، فَقَالُوا: إِنَّا قَدْ صَدَّقْنَاكَ وَلَعَنَّا نَلْقَى مُحَمَّدًا ﷺ. فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ لَقِينَاهُ فَقَالَتْ لَهُ غِفَارٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَبَا ذَرٍّ أَعْلَمَنَا مَا أَعْلَمْتَهُ وَقَدْ أَسْلَمْنَا وَشَهِدْنَا أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. ثُمَّ تَقَدَّمَتْ أَسْلَمُ وَخُزَاعَةُ فَقَالَتَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ قَدْ أَسْلَمْنَا وَدَخَلْنَا فِيهَا دَخَلْنَا فِيهِ إِخْوَانًا وَحَلْفَاؤَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَسْلَمُ سَالِمُهَا اللَّهُ! وَغِفَارُ غَفَرَهُ اللَّهُ لَهَا!

وقد روى بعضهم هذا الحديث فقال: "أبو ذرٍّ يمشي في الأرض بزهد عيسى ابن مريم" (٩). ولا يخفى على كل ذي بال أن تشبيهه بعيسى ابن مريم هو تشبيه من جهة التواضع، وكما جاء في حديث الجامع الصغير "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى تَوَاضِعِ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَبِي ذَرٍّ." (١٠)

الامتثال لوصايا المصطفى ﷺ

عن صدقة بن أبي عمران بن حطان قال: "أَتَيْتُ أَبَا ذَرٍّ فَوَجَدْتُهُ فِي الْمَسْجِدِ وَحَدَّةً. فَقُلْتُ: يَا أَبَا ذَرٍّ مَا هَذِهِ الْوَحْدَةُ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "الْوَحْدَةُ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ السُّوءِ، وَالْجَلِيسِ الصَّالِحِ خَيْرٌ مِنْ الْوَحْدَةِ، وَإِمْلَاءُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنَ السُّكُوتِ، وَالسُّكُوتِ خَيْرٌ مِنْ إِمْلَاءِ الشَّرِّ." (١١)

حَضْرَتُهُ الْوَفَاةُ وَلَمْ يَجِدْ كَفْنَا يَسْعُهُ!
يُروى عن وفاة أبي ذرٍّ الغفاري أنها كانت زمن خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه، حيثُ توفي رضي الله عنه جهة "الرَّبْدَةَ" سنة ٣٢هـ، وكان لوفاته قصة مؤثرة اعتبرها البعض محنةً ونسج البعض من أهل التشيع منها

لقبيلة غِفَارَ وَأَسْلَمَ الَّتِي اعْتَنَقَتِ الْإِسْلَامَ عَنْ طَرِيقِ أَبِي ذَرٍّ وَتَبْلِيغِهِ خَيْرٌ دَلِيلٌ عَلَى تَقْدِيرِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ لِذَلِكَ الْوَفَاءِ الْعَظِيمِ الصَّادِقِ الَّذِي يَرَهُنَ عَلَيْهِ حَضْرَتَهُ ﷺ حَتَّى قَالَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا أَقَلَّتْ الْعَبْرَاءُ * وَلَا الْخَضْرَاءُ ** مِنْ رَجُلٍ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أَبِي ذَرٍّ." (٦) وفي رواية أخرى: "مَا أَظَلَّتْ الْخَضْرَاءُ وَلَا أَقَلَّتْ الْعَبْرَاءُ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ." (٧)، والمراد بهذا الحصرِ التأكيد والمبالغة في صدقه أي أنه مُتَنَاهٍ فِي الصِّدْقِ. (٨)

زهد أبي ذرٍّ وتواضعه

فضلاً عما عُرف به ﷺ من خصال الوفاء وصدق القول والعهد، فإنه عُرفَ أيضاً بزُهدِهِ وتواضعِهِ حتى إنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَبَّهَهُ بِعَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ. فعن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما أَظَلَّتْ الْخَضْرَاءُ وَلَا الْغَبْرَاءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ وَلَا أَوْفَى مِنْ أَبِي ذَرٍّ، شَبَّهَ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﷺ". فقال عمر بن الخطاب، كالحاسد: يا رسول الله أفنُعرفُ ذلكَ له؟ قال نعم فاعرفوه له".

* الغبراء: الأرض ** الخضراء: السماء.

ثم أخذ أبو بكر بيدي فقال: يا أبا ذرٍّ، فقلتُ لبيك يا أبا بكر، فقال: هل كُنْتَ تَأَلُّهُ فِي جَاهِلِيَّتِكَ؟، قلتُ: نعم، لقد رأيتني أقوم عند الشمس فلا أزال مُصْلِياً حَتَّى يُوْذِيَنِي حَرُّهَا فَأَخِرُّ كَأَنِّي حَفَاءٌ. فقال لي: فأين كنتُ توجَّه؟، قلتُ: لا أدري إلا حيثُ وجَّهني الله حتى أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ." (٤)

وجاء في رواية أخرى: ".فهل أنت مُبْلَغٌ عَنِّي قَوْمِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ وَيُأَجِرَكَ فِيهِمْ؟.. فَأَتَيْتُ أَنَيْسًا - (أنيس شقيق أبي ذرٍّ) - فقال: ما صنعت؟ قلتُ: صنعتُ أني قد أسلمتُ وصدقتُ... فَأَتَيْنَا أُمَّنَا. فقالت: ما بي رغبة عن دينكما فأني قد أسلمتُ وصدقتُ". فاحتملنا - (أي انتقلنا) - حتى أتينا قومنا غِفَارًا فَأَسْلَمَ نَصْفَهُمْ.. وقال نصفهم إذا قدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينة أسلمنا. فقدم رسولُ اللهِ المدينة فأسلمَ نَصْفُهُمُ الْبَاقِي، وجاءت أسلمُ فقالوا يا رسول الله نُسَلِّمُ عَلَى الَّذِي أُسَلِّمُوا عَلَيْهِ، فَأَسْلَمُوا. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: "غِفَارُ عَقَرَ اللهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ." (٥)

لقد أوفى أبو ذرٍّ بوعدِهِ وأُنجزَ ما أوكلَهُ رسولُ اللهِ ﷺ من مهام، فقام بها ﷺ خير قيام، ولعلَّ دعاء المصطفى ﷺ

روايات باطلة للنيل من مقام خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه وبالتالي كل الذين سبقوه، نُزّه قَلَمنا عن ذكر تلك الأراجيف العليلة والأحقاد العمياء، لأن كتاب الله والسنة والحديث تشهد على رفعة مقام الصحابة الكرام في تقواهم وطهارتهم ورضى الله ورسوله عنهم أجمعين.

إن قصة وفاة أبي ذر لها من معاني التواضع والزهد والثبات واليقين أيضاً كقصة أيام حياته وإيمانه ووفائه زمن المصطفى ﷺ، وفي هذا شهادة واضحة على نوعية معدن الصحابة الكرام الذين شبههم الرسول بالنجوم وأنه بأيهم اقتدينا اهتدينا. نعم إن النجوم تختلف في أحجامها ولعانها ومواقعها لكنها من حيث طبيعتها ونورانياتها واحدة تؤدي الغرض ذاته. وهكذا أيضاً بالنسبة لكل نجم من نجوم المصطفى ﷺ.

لقد تنبأ النبي ﷺ عن مشهد ممات أبي ذر رضي الله عنه إذ قال: "لَيَمُوتَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ تَشْهَدُهُ عَصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ..". فلربما حينها لم يكن أبو ذر رضي الله عنه يدري أنه هو ذلك الرجل المقصود في هذه البشارة المباركة حتى تحققت رأي العين في شخصه وقد حضرته الوفاة

في فلاة من الأرض. فعن أمّ ذرّ قالت: "لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا ذَرٍّ الْوَفَاةَ بَكَيْتُ، فَقَالَ لِي: مَا يُبْكِيكَ؟، فَقُلْتُ وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَأَنْتَ تَمُوتُ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ عِنْدِي ثَوْبٌ يَسْعُكَ كَفَنًا لِي وَلَا لَكَ!! وَلَا بُدَّ مِنْهُ لِنَعْشِكَ. قَالَ: فَأَبْشِرِي وَلَا تَبْكِي، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِنَفَرٍ أَنَا فِيهِمْ: «لَيَمُوتَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ تَشْهَدُهُ عَصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيكَ النَّفَرِ أَحَدٌ إِلَّا مَاتَ فِي قَرْيَةٍ وَجَمَاعَةٍ». فَأَنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ!! وَاللَّهِ مَا كَذَبْتُ وَلَا كَذَبْتَ، فَأَبْصِرِي الطَّرِيقَ. فَقُلْتُ: أَتَى وَقَدْ ذَهَبَ الْحَاجُّ وَتَقَطَّعَتِ الطَّرِيقُ؟!، فَقَالَ: اذْهَبِي فَتَبَصَّرِي. قَالَتْ: فَكُنْتُ أَشْتَدُّ إِلَى الْكُتَيْبِ ثُمَّ أَرْجِعُ فَأَمْرُضُهُ، فَبَيْنَمَا أَنَا وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ أَنَا بِرِجَالٍ. فَأَلْحْتُ بِثَوْبِي فَأَسْرَعُوا إِلَيَّ حَتَّى وَقَفُوا عَلَيَّ، فَقَالُوا مَنْ هُوَ؟، قُلْتُ أَبُو ذَرٍّ. قَالُوا: صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟!، قُلْتُ نَعَمْ، فَفَدَوْهُ بِأَبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ، وَأَسْرَعُوا إِلَيْهِ حَتَّى دَخَلُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ: أَبْشِرُوا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِنَفَرٍ أَنَا فِيهِمْ: "لَيَمُوتَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ تَشْهَدُهُ عَصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا مِنْ أَوْلِيكَ النَّفَرِ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ هَلَكَ فِي قَرْيَةٍ وَجَمَاعَةٍ".

لقد تحققت بشارة سيدنا محمد المصطفى ﷺ في شخص هذا الصحابي الجليل الذي ضرب أروع الأمثلة في التواضع والوفاء والصدق والانكسار والثبات، متواضعا في حياته وعند مماته، فزهد في الدنيا فأحبّه الله وزهد فيما عند الناس فأحبّوه، وكان باقةً فيحاء من الأخلاق الروحانية العلياء ببركة الصحبة المحمدية المقدّسة، وودّع الدنيا قرير العين زاهداً وفيّاً وغمرته السعادة والطمأنينة حينما تذكر نبوة النبي ﷺ المتحققة في شخصه رضي الله عنه. وناشد عند رمقه الأخير برجاء أولئك النفّر المؤمنين الذين شهدوه عند الاحتضار أن لا يكفنه أحدٌ منهم كان غنياً أو من أشراف الناس، فرضي أن يكفنه أنصاري فقير برداء وثوبين له، وسجّي بدنه الشريف فكفن في حُلل الفقراء..!

ولنعّم ما امتدح به سيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام الصحابة الكرام في أبياته الشعرية المعبرة حق تعبير عن خصال أولئك الرجال الذين أشرقت عليهم شمسُ المصطفى صلى الله عليه وسلم بالنور والهدى حتى تخيروا في حبه وحب دينه كل عناء وتضحية:

قد نورُّوا ووجهة الوري بضياء
جاءوا رسول الله كالفقراء
بل آثروا الرحمن عند بلاء
شهدوا بصدق القلب في الأملاء
كأنوا لخير الرسل كالأغضاء
بل حشنة نشأت من الأهواء
عند المليك بعزة فغساء
صاروا بسبيل حبيبهم كغفاء
عند الضلال وفتنة صماء
وتهللوا بالقتل والإجلاء
يسود منها وجهه ذي الشحناء
واعفروا وأنت الله ذو الآء
لأشعت مدح الصَّحْبِ في الأعداء
فارقب لنفسك كل استهزاء
حق فَمَا في الحق من إخفاء^(١)

إن الصحابة كلهم كذكاء
تركوا أقاربهم وحب عيالهم
ذبحوا وما خافوا الوري من صدقهم
تحت السيف تشهدوا لخلصهم
قوم كرام لا نفرق بينهم
ما كان طعن الناس فيهم صادقاً
إنني أرى صحب الرسول جميعهم
تبعوا الرسول برحله وتواء
نهضوا لنصر نبينا يوفاء
وتخيروا لله كل مصيبة
أنوارهم فاقت بيان مبيِّن
يارب فارحمننا بصحب نبينا
والله يعلم لو قدرت ولم أمت
إن كنت تلعنهم وتضحك حسنة
من سب أصحاب النبي فقد ردَى

المصادر:

- (١) المستدرک علی الصحیحین/ باب ذکر مناقب أبو ذر الغفاري
- (٢) صحیح البخاری، ج: ٢، حدیث: ٣٦٤٨
- (٣) المستدرک علی الصحیحین، حدیث: ٥٤٥٦
- (٤) المرجع السابق، ج: ٣، حدیث: ٥٤٥٧
- (٥) صحیح مسلم، ج: ٤، حدیث: ٢٤٧٣
- (٦) سنن ابن ماجه، فصل أبي ذر، ج: ١، حدیث: ١٥٦
- (٧) الترمذی، ج: ٥، حدیث: ٣٨٠١
- (٨) تحفة الأحوذی، باب مناقب أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.
- (٩) الترمذی، ج: ٥، حدیث: ٣٨٠٢
- (١٠) الجامع الصغير.
- (١١) المستدرک علی الصحیحین، حدیث: ٥٤٦٦
- (١٢) سر الخلافة، الخزانة الروحانية ج ٨ ص ٣٩٧